

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَلِمَةُ تَوْجِيهِيَّةٌ عَبْرَ الْهَاتِفِ: مُوجَّهَةٌ لِلْإِخْوَةِ وَالْأَبْنَاءِ بِـ(مَسْجِدِ الْكَرَامَةِ) فِي (أَمْسْتِرْدَام) بِـ(هُولَنْدَا)

لِصَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ أَبِي أَنَسٍ مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي الْمَدْخَلِيِّ حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(١)

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

الحمدُ لله ربَّ العالمين، والعاقبةُ لِلْمُتَّقِينَ، وأشهدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وأشهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَاتَّبَاعِهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ اللَّهَ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_ قَدْ أَوْجَدَ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِمَهْمَّةٍ عَظِيمَةٍ؛ أَلَّا وَهِيَ عِمَارَةُ هَذِهِ الْحَيَاةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَطَاعَتِهِ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_؛ لِتُسْتَقِيمَ لَهُ أُمُورُ حَيَاتِهِ، وَتُصْلَحَ لَهُ أُمُورُ آخِرَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ؛ قَالَ _جَلَّ وَعَلَا_: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) }^(٢).

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ:

فَكَيْفَ يَعْبُدُ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَيُطِيعُهُ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_ وَيُفَرِّدُهُ بِتَوْحِيدِهِ وَيَحْذَرُ مِنْ ضِدِّ ذَلِكَ؟!

وَكَيْفَ يَعْبُدُ رَبَّهُ صَلَاةً وَصِيَامًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ كَالذِّكْرِ وَنَحْوِهَا؟!

وَكَيْفَ يَعْرِفُ أَحْكَامَ الْمُعَامَلَاتِ مَعَ النَّاسِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَأَنْوَاعِ الْبُيُوعِ وَالْمُكَاسِبِ [وَأَحْكَامِ التَّجَارَةِ

كَالرَّهْنِ وَنَحْوِهِ؟!

وَهَكَذَا... يَعْرِفُ الْمُحَرَّمَاتِ، أَنْوَاعَ الرِّبَا وَأَقْسَامَهُ؟!

وَهَكَذَا... الْعِلَاقَاتِ الْأُسْرِيَّةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفَقْهِ الْأُسْرَةِ؟!

^١ _ أَلْقَاهَا عَبْرَ الْهَاتِفِ، مِنَ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ _حَمَاهَا اللهُ وَشَرَفَهَا بِالتَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ_، بَعْدَ عِشَاءِ يَوْمِ الْأَحَدِ، الثَّالِثِ، مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ، عَامِ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ (٣ / ٧ / ١٤٤٠ هـ).

^٢ _ سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ؛ آيَةُ ٥٦، ٥٧، ٥٨.

وَمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ؟!

وَمَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ السُّلْطَانِ؟!

وَمَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الرَّعِيَّةِ وَإِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ؟!

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ وَمَعْرِفَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟!

إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعِلْمِ، وهذا لا يُمكنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَّا: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨)}^(٣).

قَالَ جَلَّ وَعَلَّا: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}^(٤).

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}^(٥).

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَهْمَةَ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ.

[وَأَكْمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَّا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}^(٦).

فَبَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كَيْفَ قَامَ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ بَيَّانَ هَذَا الْأَصْلِ؛ أَلَا

وهو إفرادُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَّا بِالْعِبَادَةِ.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}^(٧)؛ كَمَا بَيَّنَّهُ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

^٣ — سورة المزل، آية ١٥، ١٦، ١٧، ١٨.

^٤ — سورة النحل؛ آية ٣٦.

^٥ — سورة النساء؛ آية ١٦٥.

^٦ — سورة الأنبياء؛ آية ٢٥.

^٧ — سورة الأنعام؛ آية ٨٢.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} ^(٨).
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي بَيَانِ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ؛ أَلَا وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-
وَبَيَانُ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بِهِ هَذَا الرَّسُولَ.
[وَكَمَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَى- : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} ^(٩).

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- : {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} ^(١٠).
وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَى- : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} ^(١١).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَّ فِيهَا مَهْمَةَ هَذَا الرَّسُولِ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.
كَمَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَى- أَيْضًا ^(١٢) : {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} ^(١٣).

فَيُبَيِّنُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَيُبَيِّنُونَ مَا نَهَى اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَى- إِلَّا بِمَا فِيهِ صَلَاحُ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعًا، وَمَا نَهَى اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إِلَّا عَمَّا فِيهِ ضَرَرُ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعًا.

^٨ - سورة النور؛ آية ٥٥، وتكملت بها {وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

^٩ - سورة الأحزاب؛ آية ٢١.

^{١٠} - سورة النساء؛ آية ٨٠.

^{١١} - سورة الأحزاب؛ آية ٤٥، ٤٦.

^{١٢} - هنا في الأصل: (فِي الْآيَةِ الْآخَرَى الَّتِي سَمِعْتُمُوهَا قَبْلَ قَلِيلٍ).

^{١٣} - سورة النساء؛ آية ١٦٥.

إِذَا؛ فَعَادَ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ التَّلَقِّي حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_ عَلَى بَصِيرَةٍ، لَا بَدَّ مِنَ التَّلَقِّي لِهَذَا؛ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ _جَلَّ وَعَلَا_ وَحْدَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ؛ يَعْبُدُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_.

فَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَى مَنْ طَلَبَ نَجَاةَ نَفْسِهِ أَنْ يُشَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ، وَيَطْلُبَ الْعِلْمَ وَيَتَعَلَّمْ؛ فَإِنَّ هَذَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَهُ اللَّهُ _جَلَّ وَعَلَا_ {بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} ^(١٤).

(وَالْهُدَى): هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ.

(وَدِينِ الْحَقِّ): هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ نَافِعًا حَتَّى يُتِمَّرَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ صَالِحًا حَتَّى يَكُونَ صَحِيحًا خَالِصًا لِلَّهِ _جَلَّ وَعَلَا_؛ فَ(الْخُلُوصُ لِلَّهِ _جَلَّ وَعَلَا_) مِنْ الشَّرْكِ، وَ(الصَّحَّةُ): أَنْ يَكُونَ عَلَى وَفْقٍ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي قَوْلِهِ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ^(١٥).

كَمَا قَالَ _جَلَّ وَعَلَا_: {وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} ^(١٦).

إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي هَذَا الْبَابِ؛ فَحِينَئِذٍ يَجِبُ عَلَى مَنْ أَرَادَ نَجَاةَ نَفْسِهِ أَنْ يُشَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ؛ فَيَتَعَلَّمْ حَتَّى يَعْلَمَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَلِيَعْلَمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ الْعِلْمَ عَلَى قِسْمَيْنِ: عِلْمٌ عَيْنِيٌّ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَهُ؛ وَهُوَ مَا لَا يَصِحُّ دِينُهُ وَلَا يَقُومُ دِينُهُ إِلَّا بِهِ؛ كَمَعْرِفَةِ تَوْحِيدِ اللَّهِ _جَلَّ وَعَلَا_ (مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ)، وَمَعْرِفَةِ الْعَبْدِ دِينَهُ، وَمَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَسُولَهُ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_، وَمَعْرِفَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ.

^{١٤} _سورة التوبة؛ آية ٣٣، وسورة الفتح؛ آية ٢٨، وسورة الصف؛ آية ٩.

^{١٥} _سورة الكهف؛ آخر آية.

^{١٦} _سورة الزمر؛ آية ٦٥، ٦٦.

فهذه هي المسائل التي يجبُ على العبد أن يتعلّمها حتى يصحّ عمله عند الله _جلّ وعلا_ ويكون مقبولاً عند ربه _سبحانه وتعالى_ {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ^(١٧)؛ فالله أغنى الشركاء عن الشرك كما قال _سبحانه_ في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ".

ويُحقّق هذه العبادة بصحّتها؛ وذلك بأن يكون مُتبعاً فيها لرسول الله _صلّى الله عليه وسلّم_، مُقتفياً لأوامره، مُجتنباً نواهيه _صلّى الله عليه وسلّم_ كما قال _جلّ وعلا_ : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} ^(١٨).

كما قال _جلّ وعلا_ : {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} ^(١٩).
فقد بينَ _عليه الصلاة والسلام_ غاية البيان مُتمثلاً في ذلك أمر ربه _تبارك وتعالى_ في قوله: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} ^(٢٠).

فبينَ _عليه الصلاة والسلام_ هذا الدين بياناً شافياً كافياً بكلّ وجهٍ من وجوه البيان، وما التحقّ بالرفيق الأعلى إلّا وقد تركنا على مثل البیضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك، فوقّ لعلم ذلك مَنْ وُفّق، وقصّر مَنْ قصّر، ونسأل الله _جلّ وعلا_ أن يتداركنا وإياكم بفضلِهِ ورحمته، وأن يعيننا وإياكم على أنفسنا.

والحاصل: أن العمل لا يُمكن أن يكون صحيحاً حتّى يكون (خالصاً) لله من الشرك، وأن يكون (صواباً) على سنة النبي _صلّى الله عليه وسلّم_ كما قال _عليه الصلاة والسلام_ : "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ".

قال _عليه الصلاة والسلام_ : "كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ".

^{١٧} _ سورة الكهف؛ آخر آية.

^{١٨} _ سورة النساء؛ آية ٥٩.

^{١٩} _ سورة النور؛ آية ٥٤.

^{٢٠} _ سورة النحل؛ آية ٤٤.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ".

فَيَجِبُ الْاِتِّبَاعُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَطْلُبُ الْإِنْسَانُ الدَّلَائِلَ عَلَى مَا يَقُولُ، وَعَلَى مَا يَفْعَلُ؛ حَتَّى يَكُونَ مُثَبَّتًا عِلْمُهُ؛ فَإِنَّهُ إِنْ قَامَ بِذَلِكَ وَفَّقَ لِلْخَيْرِ كُلِّهِ وَانْطَبَقَ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ".

وَلَنَعْلَمَ جَمِيعًا أَنَّ الْفِقْهَ فِي الدِّينِ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَعْرِفَةِ أَدِلَّتِهَا النَّقْلِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِضَافَةً إِلَى مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْإِجْمَاعِ الصَّحِيحِ وَالْقِيَاسِ الصَّرِيحِ فِي هَذَا الْبَابِ.

فَإِذَا وَفَّقَ الْعَبْدُ لَذَلِكَ فَقَدْ وَفَّقَ لِلْخَيْرِ كُلِّهِ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ".

وَهَذَا يُظْهِرُ لَنَا أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا هُوَ مَعْرِفَةُ الدَّلَائِلِ، وَتَعْظِيمُ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ بِدَلَالِهَا، لَا بِعَظَمِ قَائِلِهَا وَمَنْزِلَةِ قَائِلِهَا؛ فَإِنَّ الْأُمَّةَ قَدْ أَجْمَعَتْ عَلَى أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَهُوَ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ، وَيُرَدُّ وَيُردُّ عَلَيْهِ، إِلَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (إِمَامُ دَارِ الْمِجْرَةِ): كُلُّ وَاحِدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَيُرَوَّى أَيْضًا: مَا مِنَّا إِلَّا رَأْدٌ وَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ إِلَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَالْعِلْمُ (الصَّحِيحُ) (الرَّجِيحُ): هُوَ مَعْرِفَةُ الْأَقْوَالِ بِأَدِلَّتِهَا الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ فِي هَذَا.

الْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الْهُدَى بِدَلِيلِهِ ... مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ يَسْتَوِيَانِ

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَدَوَاؤُهُ ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفَقَانِ

نَصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَيِّبُ ذَاكَ الْعَالَمِ الرَّبَّانِي

فَيَجِبُ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْأَحِبَّةِ أَنْ نُشَمِّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَفِي تَعَلُّمِ الْوَاجِبِ عَلَيْنَا (الْقِسْمِ الْأَوَّلِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُهُ وَجُوبًا عَيْنِيًّا)؛ كَطَهْرِهِ، وَطَهَارَتِهِ، وَغُسْلِهِ مِنْ جَنَابَتِهِ، وَوُضُوئِهِ، وَأَحْكَامِ صَلَاتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ... (مَا لَا يَصِحُّ دِينُهُ إِلَّا بِهِ).

والقسم الثاني (من نوعي العلم): وهو الفرض على الكفاية؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقيين.
وهذا نقصد به: التوسع في معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها النقليّة وقياساتها العقليّة الصحيحة التي
جاءت عن علماء الإسلام، على القواعد المعروفة المقررة في أصول الفقه، وفي أصول التفسير، وفي أصول
الحديث.

هذه إنّما يقوم بها طائفة كما قال _جلّ وعلا_: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ
فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (٢١).
فأوصيكم _أيها الإخوة ونفسي_ بالحرص على الأوقات واستغلالها في تحصيل العلوم الشرعيّة،
وإدراكها، والاجتهاد في هذا، وبذل الأوقات في ذلك، والجهد والاجتهاد في هذا، ولْيَعْلَمَنَّ أَنَّ (العلم الصحيح):
هو قَالَ اللهُ... قَالَ رَسُولُهُ... (العلم): قَالَ اللهُ... قَالَ رَسُولُهُ... مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ يَسْتَوِيَانِ.
فر(العلم): قَالَ اللهُ... قَالَ رَسُولُ اللهِ _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_... وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ النَّاسِ إِنَّمَا
تُوزَنُ بِأَقْوَالِ رَسُولِ اللهِ _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ كما في الحديث المُتَقَدِّم: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ
مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ".

"مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ".

"كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ".

إِذَا؛ فَكُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا النَّبِيُّ _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_.

وَمَنْ اعْتَقَدَ لِأَحَدٍ الْعِصْمَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_؛ فَهَذَا قَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا، نَسَأَلُ
اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

بَلْ مَنْ زَعَمَ لِأَحَدٍ الْعِصْمَةَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

فَالْعِصْمَةُ إِنَّمَا أُوتِيَهَا الرُّسُلُ _صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ_؛ فَقَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ كَامِلَةً كَمَا
أَمَرَهُمُ اللهُ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_؛ كَمَا قَالَ _جلّ وعلا_: {مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (٢٢).

٢١ _سورة التوبة؛ آية ١٢٢.

فَاللَّهُ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_ قَدْ أَمَرَ رَسُولَهُ بِالْبَلَاغِ، وَقَدْ بَلَغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينُ، فَلَمْ يُفَرِّطْ _صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ_ فِي هَذَا الْجَانِبِ شَعْرَةً، فَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ أَبُو ذَرٍّ: "مَا تُؤْفِي رَسُولُ اللَّهِ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ وَطَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا آتَانَا مِنْهُ عِلْمًا".
وَلَكِنْ هَذَا الْعِلْمُ عِلْمُهُ مَنْ عِلْمُهُ، وَجَهْلُهُ مَنْ جَهْلُهُ.

فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا _مَعَشَرَ الْأَحِبَّةِ_ أَنْ نَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ الْأَدِلَّةِ، وَأَنْ نَحْفَظَ فِي هَذَا الْبَابِ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ كُتُبِ الْأَحْكَامِ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ _تَبَارَكَ وَتَعَالَى_؛ كـ(الرَّبْعِينَ)، وَ(الْعُمْدَةِ فِي أَحَادِيثِ الْأَحْكَامِ) لِلْحَافِظِ عَبْدِ الْغَنِيِّ الْمَقْدِسِيِّ وَ(بُلُوغِ الْمَرَامِ)، وَهَكَذَا (الْمُحَرَّرِ) وَ(الْمُنْتَقَى) وَغَيْرَهَا مِنْ كُتُبِ أَحَادِيثِ الْأَحْكَامِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَدِلَّةُ هِيَ الدَّلَائِلُ الَّتِي تَثْبُتُ بِهَا أَقْوَالُ الرِّجَالِ، فَإِنَّ أَقْوَالَ الرِّجَالِ يُحْتَجُّ لَهَا، وَلَا يُحْتَجُّ بِهَا.
أَقْوَالُ الرِّجَالِ يُحْتَجُّ لَهَا، وَلَا يُحْتَجُّ بِهَا.
فَكُلُّ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ.

أَقُولُ: إِنَّ أَقْوَالَ الرِّجَالِ تُوزَنُ بِالدَّلَائِلِ؛ فَإِذَا قَامَتِ الْأَدِلَّةُ عَلَى صِحَّتِهَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_؛ قُبِلَتْ.

وَأِنْ لَمْ تَقُمْ الْأَدِلَّةُ عَلَى صِحَّتِهَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ وَاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ؛ فَإِنَّهَا تُرَدُّ عَلَى قَائِلِهَا، تُرَدُّ عَلَى قَائِلِهَا كَأَنَّ مَنْ كَانَ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ مَعْرِفَةُ الْهُدَى بِذَلِيلِهِ، مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ يَسْتَوِيَانِ.

فَإِذَا تَعَلَّمَ الْعَبْدُ وَعَرَفَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْأَدِلَّةِ؛ كَانَ فِي هَذَا الْبَابِ ثَابِتًا، لَا تَعَصِفُ بِهِ الْعَوَاصِفُ، وَلَا تَهْزِرُهُ الْهَزَاتُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَضْحَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أَوْ يُدَلِّسَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أَوْ يَعِشَّهُ أَحَدٌ، أَوْ يُلَبِّسَ عَلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللَّهِ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_ لَهُ.

وَعَلَيْهِ _مَعَ هَذَا كُلِّهِ_ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي دُعَائِهِ رَبَّهُ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_: أَنْ يُبَيِّرَ بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْهُدَى إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ _سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى_ عَلَيْهِ (إِذَا حَصَلَ لَهُ).

فهذا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَهُوَ النَّبِيُّ؛ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ حُكْمًا مُوَافِقًا لِحُكْمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ يَعْنِي: أَنَّهُ يُؤَفِّقُ فِي أَحْكَامِهِ حَتَّى يُوَافِقَ مُرَادَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نُكْثِرَ التَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى والدُّعَاءَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنْ يُؤَفِّقَنَا لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ؛ إِنَّهُ {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (٢٣).

فَهَذَا الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْأَحِبَّةِ؛ فَمَنْ ثَبَتَ عَلَى السُّنَّةِ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُ قَوْلِهِ، وَمَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ فَهَذَا الَّذِي يُرَدُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ (الَّذِي خَالَفَ فِيهِ).

وَلْيُعْلَمَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا عَظُمَتْ مَكَائِثُهُ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَبَدٍ وَأَنْ يُخْطِئَ، وَالْإِنْسَانُ مَهْمَا عَظُمَتْ مَكَائِثُهُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَبَدٍ وَأَنْ يَقَعَ فِي اجْتِهَادِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَخْطَاءِ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا؛ حِينَئِذٍ تَأْتِي الْقَاعِدَةُ: (أَنَّ الْحَقَّ يُعْرَفُ بِالذَّلَائِلِ لَا بِعَظَمَةِ الْقَائِلِ)؛ لِأَنَّهُ مَا مِمَّا إِلَّا رَادٌّ وَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ إِلَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَإِذَا تَجَرَّدَ الْعَبْدُ لَذَلِكَ وَعَلِمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا مِنْهُ (الصِّدْقَ) وَ(الِاخْلَاصَ) فِي ذَلِكَ؛ وَفَقَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَا هُنَالِكَ، فَتَجِدُهُ مُوَافِقًا فِي أَحْكَامِهِ، مُوَافِقًا فِي أَقْوَالِهِ، مُسَدِّدًا فِي أَفْعَالِهِ، وَهَذَا فَضْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْكُمْ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ أَحْوَجُ مَا تَكُونُونَ إِلَى الْعِلْمِ الصَّحِيحِ الْقَائِمِ عَلَى الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَوَاعِدِ الْمُرْعِيَّةِ (الَّتِي أَقْرَاهَا عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ وَاتَّفَقُوا عَلَيْهَا)؛ فَعَلَيْكُمْ بِالاجْتِهَادِ فِي هَذَا وَتَحْصِيلِهِ، وَتَأْصِيلِهِ أَيْضًا لِأَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيعُونَ حَتَّى تُنْجِبُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَةَ عِلْمٍ أَقْوِيَاءَ، لَا يَنْصَاعُونَ إِلَّا لِلدَّلِيلِ، وَيَأْخُذُونَ بِالدَّلِيلِ (وَيَأْخُذُونَ بِالَدَّلِيلِ)؛ فَيُحَاكِمُونَ إِلَيْهِ، وَيَتَحَاكِمُونَ إِلَيْهِ.

فَإِذَا أَنْتُمْ وَفَّقْتُمْ لِهَذَا؛ فَقَدْ وَفَّقْتُمْ لِلْخَيْرِ الْكَثِيرِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ لَنَا: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ".

٢٣ _ سورة البقرة؛ آية ١٤٢، ٢١٣، وسورة النور؛ آية ٤٦.

فَلْيَحْرِصِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ مَقْبُولًا، وَلَا يَكُونَ مَقْبُولًا إِلَّا (كَمَا قُلْنَا) بِالشَّرْطَيْنِ السَّابِقَيْنِ فَإِنَّ:

شَرْطَ قَبُولِ السَّعْيِ أَنْ يَجْتَمِعَا ... فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعًا

فَأَمَّا (الإِخْلَاصُ): فَهُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، خَالِيًا مِنَ الشَّرْكِ.

وَأَمَّا (الإِصَابَةُ): فَأَنْ يَكُونَ وَفْقَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَلَا وَلْيَعْلَمْ أَيُّضًا: أَنَّكُمْ إِذَا غَرَسْتُمْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَأَعْلَمُوهُمْ أَنَّهُ مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ^(٢٤)، هَذَا الْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ، كَانُوا أَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَبَهَا تَكَلُّفًا، وَكَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَّبِعَهُمْ، وَأَنْ نَعْرِفَ لَهُمْ قَدْرَهُمْ.

وَلْيَعْلَمْ أَيُّضًا: أَنَّ ابْنَ آدَمَ مَا دَامَ حَيًّا فَإِنَّهُ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، فَنَسَأَلُ اللَّهَ -جَلَّ وَعَلَّا- أَنْ يُعَافِيَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى بِمَنْهُ وَكَرَمِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ فِي (الْمُسْنَدِ) مِنْ حَدِيثِ [الْمِقْدَادِ]^(٢٥) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا أَقُولُ فِي أَحَدٍ شَيْئًا بَعْدَ حَدِيثِ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَرَى بِمَا يُخْتَمُ لَهُ، قَالُوا لَهُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: وَمَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ ثَقَلًا مِنَ الْقَدْرِ اسْتَجْمَعَتْ غَلِيَانًا"^(٢٦).

^{٢٤} قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًّا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَبَهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ» [جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله لابن عبد البر رحمه الله (١٨١٠/٩٤٧/٢)]

^{٢٥} فِي الْأَصْلِ: (الْقَعَقَاع).

^{٢٦} أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ [ت: ٢٤١هـ] فِي مُسْنَدِهِ (٢٣٨/٣٩-٢٣٨١٦/٢٣٩)؛ قَالَ: حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا الْفَرَجُ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ سُلَيْمٍ، قَالَ: قَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ: لَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ خَيْرًا وَلَا شَرًّا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُخْتَمُ لَهُ، يَعْنِي بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ: وَمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ ثَقَلًا مِنَ الْقَدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلِيَانًا».

فَنَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُثَبِّتَ قُلُوبَنَا وَقُلُوبَكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

ولهذا كان _عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ_ يُكْثِرُ فِي دُعَائِهِ: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ".

ويقول _عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ_: "تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا يُعَرِّضُ الْحَصِيرُ عُودًا عُودًا، فَأَيُّمَا قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِنْتُمْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيِّضَاءُ، وَأَيُّمَا قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِنْتُمْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ؛ حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، وَأَسْوَدَ مِثْلِ مِرْيَادٍ كَالْكُوزِ مُجَحَّيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ".

فَالْفِتْنُ _حَفِظَكُمُ اللَّهُ_ تَعْصِفُ بِالْقُلُوبِ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَمَا سُمِّيَتِ الْقُلُوبُ بِهَذَا الْاسْمِ إِلَّا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ التَّقَلُّبِ:

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِنَسْيِهِ ... وَمَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ قَلْبًا إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ ... (٢٧)

فَالوَاجِبُ عَلَيْنَا _مَعَشَرَ الْأَحِبَّةِ_ أَنْ نَحْرِصَ...

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ؛ الْوَاجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ جَمِيعًا أَنْ يَكُونَ الْقُدْوَةُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_؛ فَهُوَ الَّذِي لَا يَرُدُّ مِنْ قَوْلِهِ شَيْءٌ كَمَا قَالَ _جَلَّ وَعَلَا_: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} (٢٨).

وَأَمَّا مَنْ عَدَاهُ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَمَا مِنَّا إِلَّا رَادٌّ وَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

وَلْيُعْلَمَ: أَنَّ الْحَيَّ مَا دَامَ حَيًّا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَنَّأً فَلَيْسَتْ بِيَمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْلَمَ ذَلِكَ.

^{٢٧} _تَكْمِلَتُهُ_: (وَالرَّأْيُ يُصَرِّفُ الْإِنْسَانَ أَطْوَارًا)؛ ينظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (٩/٤٣١).

^{٢٨} _سورة الأحزاب_؛ آية ٣٦.

وَيُوعَلَمُ: أَنَّ الْعِصْمَةَ لَمْ تُعْطَ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَّا وَيُصِيبُ وَيُخْطِئُ، وَلَكِنَّ الْعَالِمَ الْمُؤَفَّقَ هُوَ مَنْ كَانَ خَطْوُهُ مَعْمُورًا فِي بَحْرِ صَوَابِهِ، وَالْجَاهِلُ مَنْ كَانَ صَوَابُهُ مَعْمُورًا فِي بَحْرِ أَخْطَائِهِ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

فأَحْرِصُوا - وَفَّقَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ - عَلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا وَأَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَكُمْ عَلَى هَذَا - حَفِظْكُمْ اللَّهُ - .
وَأَيْضًا أُوصِيكُمْ - مَعَشَرَ الْأَحِبَّةِ - بِالرَّفْقِ بِالنَّاسِ، وَاللُّطْفِ بِهِمْ، وَاللِّينِ مَعَهُمْ، وَدَعْوَتِهِمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (٢٩).

قَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِرَسُولِهِ: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (٣٠).

قَالَ - جَلَّ وَعَلَا - (٣١): {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} (٣٢).
فَأَهْلُ الْكِتَابِ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ دِينُ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - بِالرَّفْقِ، وَاللُّطْفِ، وَاللِّينِ، وَإِظْهَارِ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ، وَإِظْهَارِ شَيْمِ الْإِسْلَامِ، وَإِظْهَارِ حُسْنِ أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ، وَآدَابِ الْإِسْلَامِ، وَجَمَالِ الْإِسْلَامِ، وَنَزَاهَةِ الْإِسْلَامِ، وَنَضَارَةِ الْإِسْلَامِ، وَنُظَافَةِ الْإِسْلَامِ، وَشُمُولِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَيُسْرِ الْإِسْلَامِ، وَصَفَاءِ الْإِسْلَامِ، وَنِقَاوَةِ الْإِسْلَامِ، وَقُوَّةِ الْإِسْلَامِ... يُبَيِّنُ لَهُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالَدَّلَائِلِ.

فَإِذَا وَفَّقْتُمْ إِلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - سَيُعِينُكُمْ عَلَى هَذَا، وَيُوفِّقُ النَّاسَ لِلْقَبُولِ مِنْكُمْ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا هِيَ بِيَدِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -، وَمَنْ أَحْسَنَ لَقِيَ الْقَبُولَ، وَمَنْ أَسَاءَ أَعْرَضَ النَّاسُ عَنْهُ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ.

٢٩ - سورة النحل؛ آية ١٢٥.

٣٠ - سورة يوسف؛ آية ١٠٨.

٣١ - هنا في الأصل: (وهذا تحتاجون أنتم إليه).

٣٢ - سورة العنكبوت؛ آية ٤٦.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا وَإِيَّاكُمْ بِالْإِحْسَانِ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَاحْسِنُوا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ بِإِخْرَاجِكُمْ لَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، بِهَدَايَتِهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ.

وَاحْرِصُوا أَيْضًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عِنْدَهُمُ الْبِدْعُ وَالْأَغْلَاطُ وَالْأَخْطَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الَّتِي تَوَارَتْهَا وَجَاوُوا بِهَا مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ أَخَذُوهَا عَلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ الْمُبْتَدِعِينَ (الَّذِينَ هُمْ عِنْدَكُمْ مِمَّنْ وَفَدُوا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا)، وَبَيِّتُوا لَهُمُ الْإِسْلَامَ الصَّافِيَ.

وَاحْرِصُوا أَيْضًا عَلَى الْأَمْرِ الثَّالِثِ؛ وَهُوَ الْحِفَاطُ عَلَى أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى نَشْءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ يَدْخُبُوا فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْغَرِيبَةِ (وْخُصُوصًا مُجْتَمَعَكُمْ أَنْتُمْ فِي هَوْلندا، وَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، وَلَا أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أَفْصَلَ فِي هَذَا الْبَابِ)؛ فَاحْفَظُوا أَبْنَاءَ الْمُسْلِمِينَ، احْفَظُوا نَاشِئَةَ الْمُسْلِمِينَ.

مَنْ رَأَيْتُمُوهُ قَدْ انْغَمَسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَلَذَّاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ وَالْأَهْوَاءِ؛ فَاحْرِصُوا عَلَى إِخْرَاجِهِ مِنْهَا بِكُلِّ سَبِيلٍ مُمَكِّنَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُبَاحَةِ وَالطَّرَاقِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْوَسَائِلِ الْمُرْعِيَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَمَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ وَحَمَاهُ؛ فَاحْرِصُوا أَيْضًا عَلَى تَعْزِيزِ الْأَمْنِ لَهُ وَحِمَايَتِهِ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي هَذَا الْبَلَاءِ. أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُوفِّقَنَا وَإِيَّاكُمْ جَمِيعًا، وَأَنْ يَنْفَعَنَا وَإِيَّاكُمْ جَمِيعًا بِمَا عَلِمْنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ الْفَقْهَ فِي الدِّينِ وَالْبَصِيرَةَ فِيهِ، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَاتَّبَاعِهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٣).

٣٣ _ مَا كَانَ مِنْ خَطَا فِي التَّفْرِيعِ فَلَمَّا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ قُصُورٍ وَتَقْصِيرٍ، وَالْإِنْسَانُ يَجْتَهِدُ وَيَتَحَرَّى الصَّوَابَ، فَجَزَى اللَّهُ مَنْ فَرَعَهَا خَيْرًا، وَجَعَلَ هَذَا فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ، وَكَتَبَ لَهُ الْأَجْرَ وَالْقَوَابِ، وَثَبَّتَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ حَتَّى يَلْقَاهُ، اللَّهُمَّ آمِينَ.